الأستاذ
محمد عزيز الحبابي

1993-1923

توفي الأستاذ محمد عزيز الحبابي في السنة الماضية (1993) بعد حياة عامرة قضاها في خدمة الفلسفة العربية و العالمية، و في خدمة اللغة العربية و آدابها و ثقافتها. و لقد كان منه أن ترك لنا كتبا قيمةعدةً يمثل كل منها خطوة إلى الأمام في التقدم بالفكر على اختلاف وجوهه. و هي كثيرة. منها ما هو بالعربية في قضايا اللغة. و منها ما هو بالفرنسية في الفلسفة و الشعر.

إن الأستاذ الحبابي شاعر و فيلسوف. و هو من أعلام الشخصانية بما كتبه عنها، و بما أثراها به حين درسها من وجهة نظر إسلامية. هذا، و لقد ألف بعد استقلال المغرب سنة 1956، كتابا هو «عالم الغد» يشرح فيه الفلسفة التي آلت إليها شخصانيته و التي سماها «فلسفة الغد». و هي فلسفة و اقتصاد و أخلاق للغد و منه.

إن الأستاذ الحبابي الذي ولد بفاس في المغرب سنة 1923 كان مبرزا في الفلسفة، و دكتور دولة في الآداب و العلوم الإنسانيةمن جامعة باريس، و عميدا شرفيا لجامعة محمد الخامس، و عضوا في أكاديمية المغرب الملكية، و رئيسا للجمعية الفلسفية المغربية.

و هو من بعد هذا أستاذ معروف في الجامعات العربية و العالمية بفكره و كتبه، و في جامعة الجزائر التي درس بها في السبعينات، بالخصوص.

و لهذا فإن جامعة الجزائر ترى في وفاته فقدانا لعالم من أعلام الفكر في العالم، و فقدانا لأستاذ من أساتذتها البارزين. و هي إذ تتقدم بتعازيها الحارة لعائلته و للجامعة المغربية تتشرف أن تنشر في هذا العدد من حولياتها مقالا للأستاذ الربيع ميمون كتبه عنه تكريما له في الإحتفال ببلوغه السنة السبعين من عمره، رحمه الله و أسكنه فسيح جنانه.

حوليات جامعة الجزائر.

الأستاذ محمد عزيز الحبابي
الفيلسوف الرائد

الربيع ميمون
أستاذ بجامعة الجزائر

1-

عرف الفكر العربي في هذا القرن انتعاشا في مجالات المعرفة المختلفة، لايخفي على أحد، حتى ولو كان فك لاتصدر عنه في أغلب الاحيان الاثار التي تنتظر منه وترتجى. وبالفعل، فهو، **في اللغة**، فكر يحاول أن يتجاوز لغة حاضره ليرتقي الى ابداع تلك اللغة الكاملة المكتملة التي انفجرت منابع كنوزها في صحراء العرب، وهم في جاهليتهم، لتنقل وحي السماء في منطوقه البليغ ومفهومه الذي لاتتناهي اسراره، الى البشرية كلها، ولكنة لايزال بعيدا عن الغاية المنشودة. وهو **في الفلسفة** فكر يحاول أن يحيي بما يقوم به من جهود ثراثا جد عزيز ارخى الاهمال سدوله عليه، وأن يحيط بفكر هو في عصرنا فكر لحضارة تتظاهر باستقلالها المطلق عنا مع أن جذورها في تلك الحضارة الاصيلة التي قامت دعائم عزها فوق ربوعنا، والتي لم تسمح لنا ظروف التاريخ بان نستفيد من فتوحاتها، وبان نجعلها منطلقا لنا الى فتوحات أخرى. وهو **في مجال الفن** فكر يجتهد ليبلغ مستوى تلك الحدوس اللدنية التي حملت الفارابي على أن يضع كتابه الكبير في الموسيقى، وحملت الخليفة محمد بن الاحمر على بناء قصر الحمراء ولكأنه تجسيد لأحلام الارض واشارة الى نعيم الفردوس. وهو **في السياسة** فكر يسعى الى الدفاع عن حقوق الامة السياسية للخروج بها الى تلك الدولة التي تشير اليها آي الذكر الحكيم، وسنة الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، كما تشير إليها سير أئمّة الأمة الأعلام عبر تاريخها المشحون بالمآثر التي تزيدها قدرا الى قدرها، والموسوم بما يوجه اليها كل اصبع للاتهام بسبب ماصارت تتخبط فيه من اوحال التخلف، ومتاهات الضلال على تعددها وتنوعها. وهو **في ميدان العلوم** فكر يتطلع الى ان يكون من عصره بالبناء على ماوضعه علماء الامة من أسس لحضارة كلية لم ترد فيما بعد الا ان تعطي ثمارها في غير اراضيها لان مجاري انهارها الدافقة لم تترك على حالها، وعدلت، فصارت تسقي اراضي جدبة، لم تكن لها، فازدهرت هذه وازدانت، وصارت اراضيها الاولى ولكأن الزمان قد دار عليها واعرض عنها. وهو **في مجال الدين** فكر يسعى ليستجيب الى مطالب الوحى السامية بطرق عدة كثيرا مايعوزها التوفيق، لان مناهج المشايخ المجتهدين وفتوحاتهم في القرون الماضية لازالت لم تتبين على حقيقتها للعقول، ولأن معرفة الحاضر لازالت قاصرة لاعتمادها على

نوع من البحث كثيرا ماتتعثر خطاه لغربته في مجاهيل ماض هو مثل السجن لاصحابه، يهيمن عليهم ويجعلهم يرون حاضرهم بما يعرفونه من ألوانه الكاسفة أو الزاهية، وينظرون الى مستقبلهم بمايرميه في اعماقهم الخاوية من أنواره الغابرة. وهو في **التربية والصناعة وغيرهما** فكر يتـردد بين أقطاب لايصل الناس الى الجمع بينها لتمنع كل منها عن مداركهم، أو لأن صناعة التحليل الذي يمكن من الفهم تعوزهم، وكذلك صناعة ، التركيب الذي يمكن من الابداع.

-2 ويظهر أن قصور مداركنا، وعجزنا بالتالي عن بلوغ ما نطمح اليه من المعالي الحضارية لاسبب له الا بعدنا عن الاحاطة بمقومات الحضارة سواء كانت حاضرة او ماضية، وغيابنا عن مغامراتها في مجالات المعرفة المتنوعة على الرغم مما نبذله من الجهود الجبارة ونقوم به من المساعي. إن الحركات الفكرية التي رأت النور في البلدان الأوربية في هذا القرن كامتداد للحركات الفكرية التي رأت بها النور منذ عصر النهضة، وبداية العصور الحديثة في القرن السابع عشر مع غاليلي و باكون و ديكارت، لها ممثلون في العالم العربي هم اكثر تحمسا لها من مؤسسيها، ولكنهم أقل عطاء في مجال الابداع من متوسطي اتباعها. فالماركسيون، والوضعيون المحدثون، والوجوديون، والبنيويون، والتطوريون، والعلمانيون وغيرهم كثيرون في بلداننا، ولكن شتان مابينهم ومابين امثالهم في البلدان الاوروبية، وشتان مابين انتاجهم وانتاج هؤلاء. فالفكر لدى الأولين له أصوله الراسخة، ولواقعه بنيته الواضحة، ولغاياته افاقها اللامتناهية.

وهو عند الآخرين مجرد كلام لأنه غالبا ما يكون عن تقليد وليس عن معاناة واجتهاد، ولأنه غالبا مايكون زينة مستعارة تصميمها غريب عنهم، وكذلك تفصيلها وغنيتها. وبالفعل، فالفكر العربي في عصرنا بعيد عن الفلسفة بالحقيقة الا في القليل النادر، ولكنه ذو علاقات متينة بما يسميه الفارابي بالفلسفة البتراء و الفلسفة الزور، و الفلسفة البهرج، و الفلسفة الباطلة، و بما يسميه « شارل ساندرس بيرس» «بالحساء الفلسفي » الذي صار يقترح على الناس في الطرق والازقة. ولعل هذه الحال التي تسود ساحات عالمنا الفكرى لاسبب لها إلا بعدنا عن ساحات الفكر بالحقيقة، سواء كان لنا اولغيرنا. فالذين اتيحت لهم الفرصة للاطلاع على الفكر الغربي ودراسته في هذا القرن من الاساتذة العرب كثيرون، ولكن الحصيلة التي بين ايديهم لاتستجيب في الغالب لما نصبو إليه، ويرضى مطامحنا، لانها لاتسمن ولا تغني من جوع .. فالماركسيون والوجوديون والدعاة الى الحداثة والعلمانيون وغيرهم لهم حضور في ساحاتنا الفكرية. وهو حضور كثيرا مايعرب عن نفسه بالصياح اكثر مما يعرب عن نفسه بقوة العلم وعمق المعرفة، واصالة التفكير والجدل. ولهذا فان انتاجنا الفكري في حاجة الى مراجعة واصلاح، وتسديد وتوجيه جديد يمكننا من الوصول الى حداثة بالحقيقة لها ماضيها بالحقيقة في تراث اسلافنا الاصيل، ولها معرفة كاملة بجوانب هذا الماضي، وقدرة على التعامل معه لاكماض نضل في اراضيه التي نجهل قلاعها الحصينة، ولكن كماض مفتوح لنا، نعرف سبله واتجاهاته معرفة نستطيع ان نهتدي بها، وان نحط بها الرحال في عصرنا ونحن على بيّنة من امرنا، كما نستطيع ان نرجع بها من عصرنا على اختلاف وجوهه لنجد ماضينا لاكما تصوره لنا اوهام تخلفنا سواء كانت هياما بسلفية لاينبض لها عرق حياة، أو بحداثه نحن على الهامش منها حتى ولئن تفرنجت مظاهر حياتنا، وصرنا نقلد في طرق تفكيرنا، وفي رؤيتنا للوجود،

تفكيرا لاناقة لنا فيه ولاجمل. فالوجودي العربي. وكذ لك الماركسي والعلماني وغيرهما على هامش نفسه لاعتقاده ان زينة غيره هي زينته، وعلى هامش الاخرين لانه ليس له مايتظاهر به اذا جمعته محافل الروح بهم. ونظرا الى هذا فنحن في حاجة جد اكيدة الى امثال الغزالي وابن رشد او الفخر الرازي وابن خلدون، او الشافعي والشاطبي من عمالقة ماضينا، او الى امثال ديكارت وكانط، او هيجل وهوسرل من عمالقة حضارة تدين لحضارة اسلافنا بالكثير، في هذه المرحلة المضطربة من تاريخنا، اذ صرنا نبحث فيها عن وجودنا بالحقيقة، ولكننا كثيرا مانتنكب عنه لاننا لانعرف كيف نبحث عنه.

3- ويمكننا أن نلتفت الى كل الجهات التي يمكننا الالتفات اليها لنبحث عن رواد لنا يد لوننا على الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه لنسير على الأرض الثابتة فلا نجد الا قليلين منهم يمكننا أن نطمئن إليهم وأن نسير وراءهم لا لنصل الى ساحل النجاة فحسب، ولكن لنحتل قلاع النهوض التي يمكننا، ونحن بها، أن نسترجع أمجادنا الفكرية الماضية، وأن نوجه مسيرة الفكر لابما ينقل إلينا عن قوم آخرين، ولكن بما ينفجر في أعماق قرائحنا، وينشأ عنها كما أراد ذلك لنا الفارابي وابن رشد وغيرهما ذات زمان.

ويظهر لنا بكل وضوح، وبما لامجال للشك فيه أن استاذنا محمد عزيز الحبابي الفيلسوف والكاتب والشاعر والباحث هو في عالمنا العربي، وفي عصرنا، إمام ورائد من رواد الفكر القلائل الذين يفرضون نفوسهم علينا وعلى غيرنا من الناس، سواء أقبلنا عليهم أم أعرضنا عنهم، لأنهم من العارفين بزمانهم، ومن العارفين بالحضارة وطرق تجديدها حين يستولي الهرم عليها، لا بكثرة الصياح والادعاءات ولكن بالمعرفة الواسعة، والمنطق السليم، والمنهج السديد، والفكر البناء الذي له أسسه الراسخة وغاياته البينة الواضحة.

لقد اثبت الاستاذ الحبابي جدارته بالإمامة الفكرية في زمانه، وعلى مستوى العالم، يوم أن ناقش رسالته للحصول على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس. وهي رسالة يعالج فيها موضوعا ينبغي لنا أن نقف معه قليلا لنعرف صاحبه على حقيقته، ولنعرف أن عالمية فكرة التي تمتاز بأصالتها البارزة لها جذور عميقة تجد ارضها الخصبة المباركة في مدينة فاس، ومجتمعها، ومعالمها، وقيمها، وإشعاع دورها العلمية التي تعد جامعة القرويين تاجالها عبر القرون، وبالفعل، فلقد درس الأستاذ الحبابي بباريس بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، ورأى من أنوارها آنذاك ببصره وبصيرته مارأى ، وأخذ عن اعلامها زبدة مالديهم، وخالط من اوساطها ونواديها تلك التي كان الفكر يبحث فيها لنفسه عن طرق جديدة للفكر بالحقيقة، ولكنه لم ينس حقيقته، ولم تسبه لاأنوار باريس الفاتنة ولاتيارات مذاهبها الفكرية الزائفة. لقد عرف كيف يصمد امام اغراءاتها، وعرف منها قلاع العقل، وساحات الزيغ والضلال فلم يؤثر عليه التطرف وهو بين اسوارها مهما كان نوعه، ولم يرجع على تراث الاسلاف بالنقد الهدام والرفض البليد، وهو يغرف من منابع حكمتها، ولكنه سلك طريقا جعله ينفذ إلى أعماق الفكر الاوربي، ويعرف منه جواهره ودرره الثمينة، ويعرف به وعن طريقه مافي منابع الفكر التي روته مياهها، من كنوز وثروات، فصار، وهو يسلك هذا الطريق، فيلسوفا للغرب و للشرق، يطلبه الفكر الغربي لنفسه لانه فرض نفسه

عليه كعلم من اعلامه، ويطلبه الفكر الاسلامي لانه اعرب عن روحه وسموها وارتقى به الى عليائه حيث يهيمن علي الفكر مهما كانت ارضه، ومهما كان زمانه، ايمانا منه بأن الفلسفة انسانية وبأنها لاتكون بالحقيقة الا كذلك.

-4ولهذا نجده، وهو يشتغل بالشخصانية التي ظهرت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية كفلسفة تهتم اساسا بالشخص وقيمه، يفرض شخصيته بين اعلامها، وعلى بيئة فلسفية كانت تعمرها تيارات كثيرة متضاربة لايجد فيها الشخص قواما له يؤكد به وجوده، ويسمح له بالبروز ككيان مستقل هو للجميع، والجميع له.

لقد كانت مذاهب كثيرة مثل الحسية، والترابطية، والذرية النفسانية، والظاهرية الثانوية، والعضوية تحتل ساحات الفكر لدى ظهور الشخصانية، ولقد تصدت هذه لكل منها لبيان مافيه من تهافت فيه تشويه للإنسان وحط لكرامته، كما تصدت للمثالية الجامعية التي كانت تستحوذ على المجال النظري في فرنسا، وللحضارة الصناعية التي بدأت تؤثر علي الانسان وحياته فوق الارض تأثيرا لايبشر بخير، وللروحانية المحضة والمادية الخالصة، و للوجودية المنحرفة الملحدة التى جعلت من التركيز على الجوانب المظلمة التي تتبخر فيها انسانية الانسان موضوع اهتماماتها... ويعني هذا ان هذه الفلسفة التي هي الشخصانية، والتي كان يدعو اليها بطريقة او أخرى عظماء فلاسفة هذا القرن امثال برغسون، وماكس شلر، وغابريال مارسل، وكارل ياسبرس، قبل ان يعطيها « اما نويل مونيى، صورتها التي صارت تعرف بها بعد انشائه لمجلة «اسبرى» سنة 1932، فلسفة احتجاج على ماصارت اوروبا تعيش فيه من ازمات متعددة، سببها انهيار القيم الروحانية في مجتمعاتها، وفقدان الانسان لكرامته بسبب ذلك، فوق ربوعها.

لقد كانت الشخصانية في اوروبا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حركة فلسفية كريمة، جمعت حولها كثيرا من المفكرين، ولقد بلغت اوج عزها حوالي سنة 1950 ، ثم بدأت تفقد هيمنتها على العقول سنوات قليلة من بعد، تحت تأثير الفلسفات اللاشخصانية مثل البنيوية، والفلسفة التحليلية، والنزعة الجماعية. وهي فلسفات عاش الاستاذ الحبابي بين اصحابها والداعين اليها، وعرف ماهية كل منها، ولم يخف عليه زيفها، و لم يغب عنه صدقها لأنّ تمكنه من اللّغة الفرنسية و ثقافتها لم يكن تمكن المبتدئين، ولم يكن عن جهل بالذات و ما تنطوي عليه من الكنوز الحضارية الغالية، ولكنه كان تمكن الذات الواعية التي تعرف ماهو قويم وماهو معوج، وماهو ثمين وماهو رخيص، وماهو جدير بالاعتبار لتقبل عليه وجدير بالرفض لتعرض عنه. ولهذا نجده يفرض نفسه بقوة منذ البداية، وفي اطروحته التي خدم بها الفلسفة الغربية والعربية في آن واحد، وكذالك «الفسلفة بالحقيقة»، كما يقول الفارابي، في كل الاحوال.

-5 ان كتاب «من الكائن الى الشخص»الذي جادت به قريحة الاستاذ الحبابي في الخمسينات من هذا القرن يمتاز بصفات كثيرة تجعل منه مرجعا أساسيا في التعريف بمذهب اما نويل مونيي، وجماعته بعد الحرب العالمية الثانية. وبالفعل، فهو يعرب فيه عن مواهب جدلية ممتازة تدل على تمكنه التام من الفكر الغربي في جوانبه المتعددة، وعن قدرته على التحرك بين قضاياه، والمعالجة لها باصالة لاتقل في شيئ

عن تلك التي يمتاز بها اعلام هذا المذهب وجها بذته، ويعرب فيه بالخصوص عن استقلاله الفكري وتعاطفه البصير مع الاخر، وقدرته على التحاور المفيد معه للاخذ عنه والعطاء له من غير نسيان للذات وثرواتها، ولااغترار ببهرج الفكر الزائف سواء كان لها او لغيرها. وانه ليمكننا ان نتتبع حركة الفكر المبدع في هذا الكتاب العظيم فنرى ان حركته فيه من الحاضر الى الماضي، ومن الفكر الغربي الى الاسلامي، او العكس، لابراز مافي كل من الجواهر والانوار. وانه ليخيل الينا، ونحن نسير فيه مع صاحبه من باب إلى آخر، اننا نتعرف فيه ومعه على فكر غربي هو غير بعيد عنا، وعلى فكر اسلامي هو بحقائقه اللدنية في قلب كل فكر اصيل، مهما كان زمانه ومكانه. فالبحث في الكائن، وهو في طريقه الى " الشخص"، والبحث في الشخص، وهو يتجلى بأبعاده الظاهرة والباطنة، وبذاته وعلاقتها بالاخرين، يذكرنا بما يقوله الامام محي الدين بن عربي في كتابه « انشاء الدوائر» حين يتحدث عن الانسان الحيوان والانسان الكامل، وينبه القارى الى ان حديثه هو عن الثاني لاعن الاول لانه من مستوى الحيوانية، او مما يسميه «هيجل» بالمستوى الحيواني للروح. وهو مستوى لايليق بالانسان. ولذلك فهو يدعى دائما الى تجاوزه ليحقق ذاته ويعطيها احسن صورة لها.

ان دعوة الاستاذ الحبابي للانتقال من وضعية الكائن الى وضعية الشخص دعوة تعني الانتقال الى وضعية الشخص الذي يقتضيه الواقع حتى يكون واقعا إنسانيا صحيحا تنفجر فيه طاقات الانسان الكامنة وتجد فيه مجالا خصبا لنموها وتوجهها نحو الكمال الذي هو غاية كل انسان بالحقيقة.

6- ويظهر لنا، ونحن نتتبع خطى الاستاذ في مساره الفذ، ان الشخصانية التي يوليها اهتمامه، ويثري مكتبتها بتأليف له هو من احسن اثارها، شخصانية تتبين حدودها له شيئا فشيئا، ولاتبقي لديه شخصانية متصورة او مثالية، ولكنها تتحول لتصير «شخصانية واقعية» قبل ان تصير «شخصانية إسلامية» نرى فيها من جهة تصديقا لما قبلها مما هو انساني كلي في الفلسفات السابقة، ونرى فيها من جهة أخرى سبقا بينا في التصور الاسلامي لما ظهر بعد اللاسلام من الافكار الرائدة نتيجة للمغامرة الفكرية عبر القرون في الامم والاجناس المختلفة.

إن حضور الاسلام، وحضور نظريات اعلامه في اعمال استاذنا العظيم يظهر للقارئ منذ اول كتاب له. وهو حضور نفهم منه ان الحداثة بالنسبة إلينا تكون مستعارة. ولاتكون بالحقيقة، حتى ولو كنا نسبح في كل بحارها، اذا لم تكن لها اسس راسخة تقوم عليها، في اصالتنا، وان اصالتنا لامعنى لها اذا لم تكن لها منافذ نستطيع ان نشرف منها على مايجد في حاضرنا وان نتلقاه، وان نحيط به، وإن نهيمن عليه، وان نستفيد منه بما يثرينا ويزيد قيمة مالوجودنا. إنّ من لايعرف تراث الفلسفة لايمكنه ان يفهم ثورتها يقول « جان قال» في بداية كتابه العظيم « البحث في الميتافيزقا ». وإنّه لاحداثة لنا بالنسبة للاستاذ الحبابي اذا كنا نجهل اصالتنا، وكنا لاننطلق منها الى الغايات التي تبدو لنا، ونحن في طريقنا الى الجديد البناء الذي نحن في حاجة اليه لتجديد الانسان فينا... فنحن نتحدث كثيرا عن النهضة والنهوض، وعن التقدم والتطور منذ زمان طويل، والحقيقة ان لاشي- لنا من كل هذا، لان النهضة التي تقضي علينا بان نتحدث عنها من غير ان نبرهن على وجودها لنا فوق ارض الواقع نهضة زائفة لاعلاقة لها بالحياة وابداعها المبارك السامي.

7:- فالدعوة الى الانتقال من الكائن الى الشخص، ومن المنغلق الى المنفتح، ومن الحرية الى التحرر او التحرير، ومن اللغو الى اللغة، دعوة يتوجه بها الاستاذ الحبابي الى كل انسان، والى الانسان العربي في عصره بالخصوص، ليحضه على الانتقال من الادنى الى الاعلى، او من التخلف الى التقدم، او من الحياة الزائفة إلى الحياة التي هي الحياة. وهو انتقال لايكون الا عن تحرر للذات مما يقيدها، ويمنعها من الرقي في مدارج الكمال المتاح لها، ولايكون هذا التحرر لها الا عن طموح الانسان الدائم وسعيه الحثيث لتحرير نفسه من كل ماتدعوه اليه ظلمات الحيوانية والشيطانية في الخليط الذي يقوم عليه وجوده، والذي يرجع اليه ان يحافظ على وئامه حتى يكون له الوجود الذي هو اهل له، ولايكون له الوجود الذي لاتنعكس فيه صورة إنسانيته بالحقيقة. ويعني هذا ان تحرر الانسان او تحريره لنفسه هوجهاده المتواصل من اجل الهيمنة على الطبيعة المظلمة التي يمتاز بها وجوده لانها جزء منه، بنور العقل وعزم الارادة..و يعني هذا، أيضا، التحرر فعل لا يثبت الحرية في حد ذاتها ولايلغيها، ولكنه يعطيها معناها الحق وبعدها الصحيح.

وبالفعل فهي، كمفهوم مجرد، صفة لا يمكن اثباتها نظريا لانه لاقوام لها في النهاية، ولانه من الممكن الغاؤها ونفيها، ولكنها كتحرر او تحرير معنى له مدلوله، وله مجال تحققه في الواقع على اختلاف وجوهه. ولذلك فالتحرر هو الحرية بالحقيقة. والحرية بالحقيقة هي صفة الذات التي تختار القيمة دائما، وتعرض عن اللاقيمة دائما. و يعني هذا ان الحرية والقيمة مرتبطتان عضويا فيما بينهما، وانه لايمكننا ان نتصور حرية بدون قيمة، ولا قيمة بدون حرية. ان هذه من تلك. ولعل هذا هو الذي يفسر السبب الذي جعل الاستاذ الحبابي يكتب عن الحرية او التحرر بعد كتابته عن الكائن والشخص. ويعني هذا، ايضا، ان تحرر الانسان او تحريره لنفسه هو اعراضه عن الانغلاق على نفسه، واقباله على الافاق الواسعة التي يعرضها الوجود امامه.

8:- ان الانغلاق على الذات والانطواء عليها هو القضاء عليها، لالها. وذلك لان الانسان بالحقيقة هو الانسان المتفتح على العالم وعلى امثاله، وليس هو الانسان الذي يقبل بدون فحص مايقوله الناس بدون تفكير، و مالم يفكر فيه احد في النهاية، كما ينبغي. إنه انسان يحلم بالمدينة الفاضلة، ويسعى، وان بالقليل، من اجل تحقيقها. وهو، من بعد هذا، انسان يؤمن بالعمل وقيمته التكوينية، ويؤمن بالوحدة التي لاتنافي التعدد، وبالتعدد الذي لاتذوب فيه الوحدة التي يمتاز بها وجود كل منا، كما يؤمن بان العبقرية لايمكن ان تكون الا كلية لان العبقرية هي مسار النور الذي يجلو ظلمات المجهول، ويكشف حقيقة الوجود، والحقيقة اذا اشرقت بنورها لايمكن ان تكون لانسان او امة بالخصوص، ولكن لكل الناس ولكل الامم بدون استثناء.

9:- هذا ولايمكن ان يكون ارتقاء للانسان الى القمة التي يشعر فيها بذلك الملاء الذي تطلب نفسه المزيد منه دائما، ولايمكن ان يكون له تحرر من كل مايعيق سيره الى الامام، ولاانفتاح علي الافاق الانسانية الواسعة الا اذا تجاوز مستوى اللغو الذي هو مكاء وتصدية مهما كان سببه، الى مستوى اللغة التي هي أداة تعبير عما يجيش به الفكر و أداة تبليغ و خطاب و اتصال وتواصل، واثراء وثراء، وتقدم ورقي... إن الامم الحية هي التي تستجيب لغاتها لمقتضيات الحياة على اختلاف انواعها بالدقة التي تمتاز

بها لغات الحضارات القائمة التي يتجسم قولها في فعلها، وياتي فعلها دائما مصداقا لقولها.

كما كانت اللغة العربية في أيام عزها، و كما يجب أن تكون دائما.

ان اللغة العربية سيدة اللغات، ولكننا ابتعدنا عنها قرونا طويلة فصرنا لانعرف من أسرارها مايجعلنا نتعاطف مع مقومات حياتها السرمدية وسموها اللدنّي، وصرنا بالنسبة اليها كالبعيدين عنها، وبالنسبة الى لغات العالم كناس لالغة لهم. فنحن على الهامش ولغتنا في القمة. وماسبب ذلك الا وضعنا بالنسبة اليها. فنحن لسنا من مستوى اعلامها يوم كانت لغة الحياة والعلم، ولا من مستوى الذين ادركوا بسبب معرفتهم العضوية لها ابعاد الرسالة اللدنية التي بعث بها اخر لانبياء والمرسلين فكانوا حفظتها وناشريها على حقيقتها بين الامم والاجناس. ونحن، ايضا، لسنا من مستوى الناس الذين نعاصرهم ونعيش معهم لان مانعرفه منها لايستجيب لمقتضيات الواقع الذي نحن منه، ولان هذا الواقع قد صار يتجاوزنا بما يجعلنا حين نفكر فيه عرضة لكل دوار يغيب فيه الانسان عن نفسه، وعن كل شيء. إنّ المأساة المتعددة الوجوه التي نعاني منها، تصورها لنا حالة لغتنا تصويرا لايوجد ادق منه. ولذلك فان البحث في هذه المأساة يجب ان يكون انطلاقه من حالة لغتنا لان الحضارة هي اللغة التي تقول الحضارة، وليست شيئا آخر.

فالحضارة العربية قد كانت قائمة ومهيمنة يوم كانت لغتها تعبر عن مظاهرها كلها بدون تلعثم، وبما يتطابق مع مايعيش فيه وبه الناس من علم وعمل، ومن انجازات ومطامح واحلام. ولقد صارت الى ماهي عليه الآن حين تركت لغتها، وانفصلت عنها، واستبدلتها بغيرها. ان اللغة العربية كنا قلة لآخر رسالة سماوية الى البشرية كلها لغة كاملة مكتملة يجب علينا ان نعود اليها لنجعل منها كما كانت طبيعة لنا، ولنكون بها في مستوي الثورة الكلية الدائمة التي يعبر عنها القرآن الكريم ويدعو إليها بلسانه المعجز المبين، وفي مستوى ماصار الناس اليه ويقتضيه العصر، لأن الامة التي لا لغة لها تستجيب بها لمطالب الحياة امة متخلفة، اولا وجود لها... ويظهر ان حرص الاستاذ الحبابي على التنبيه الى دور اللغة في تكوين الشخصية الانسانية حرص منه على ان نحارب اللغو فينا، وان نرقى الى مستوي اللغة التي تعبر عن الفكر بدقة وعن الواقع بموضوعية من غير ان تخطئ جانبا منه، وهو ماكانت عليه لغة السلف الصالح يوم ان نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام تبيانا لكل شيء، وهدى وذكرى للمؤمنين.

ولقد بقيت على هذه الحال طوال عهود الازدهار فكانت بها للمسلمين حياة، وكانت لهم بها فتوحات رائدة... وانه ليمكننا ان نرجع إلى ما كانوا عليه اذا صرنا من اعاليها.

10:- هذا، ويتجلى لنا اذا رجعنا الى مسيرة الاستاذ الحبابي ان الشخصانية لديه لم تكن تعتمد على مدد غربي محض، ولم تكن شخصانية تشوه صورتها لدى منشئيها، ولكن شخصانية تكملها وتثريها وتمنحها بعدا يزيد في قيمتها، ويجعل منها شخصيانية تشمل الناس كلهم، وتدعوهم للسمو بذواتهم الى اعلى ما يمكنها... ويعني هذا انه كان، وهو في باريس رحالة ورائدا لحضارة كانت منابعها ثرة في قلبه وروحه، وعينا لأمة لم يفقد الامل في نهوضها قط، وممثلا لدين كان يعرف انه قمة مطامح البشرية

بتعاليمه الربانية. فالشخصانية لديه كثيرة الالتفات الى انوار هذا الدين منذ البداية. ولهذا فانه يمكنناالقول بانه بلغ بها، وهو يسلك هذا الطريق، كمالها و معناها...

ولهذا فانه يمكننا القول ايضا بانه فيلسوف قرن لانه من عصره واهتمامات الانسان فيه حيثما كان، وبانه فيلسوف امة لانه استاذها الى العصرنة انطلاقا من اصالتها، ودليلها الى كنوز هذه انطلاقا من فتوحات العصرنة وثرواتها. وماكتبه عن الشخصانية وعن الشخصانية الاسلامية بالخصوص، وهو من اعز ماقرأناه وكتب في العالم الاسلامي وغيره منذ بداية هذا القرن، يشهد لما نقوله. ان الاستاذ الحبابي يظهر في كتابه « الشخصانية السلامية »على حقيقته اذ يظهر فيه كفيلسوف بالحقيقة لايمنعه انتسابه الى الاسلام من التفتح على افاق الانسانية الواسعة. ولاتمنعه ثقافته الشاملة من الالتفات بقوة، وبصر وبصيرة إلى ثقافة ذويه الاصيلة. فهو للعالمية ولكن بمنظار اسلامي صحيح، وهو للاسلام ولكن بمنظار العالمية التي تمنح الخصوصية ابعادها الحقيقية.

11:- ويمكننا، اذا رجعنا الى الصفحات التي يشرح فيها كيف تكون كلمة الشهادة النواة الأصلية والأصيلة للشخصانية الاسلامية، وكيف تمدها بمقوماتها، ان نري العجب العجاب من ترسخ فكره فوق ارض التراث الخصبة، ومن سموه على فلسفات الشرق والغرب بكيفية هي لعمالقة الفكر ورواده دون سواهم.

ان كلمة الشهادة تنقلنا، في نظر الاستاذ الحبابي من وضعية الكائن الى وضعية الشخص، أو من حالتنا الخام الى مستوى الوعي المنير...

ويعني هذا انها تجعلنا اصحاب وعي بذاوتنا وبغيرها من امثالها ومن المخلوقات الاخرى، واصحاب وعي بخالقنا وخالقها في بعده عنا وقربه منا، وفي ظهوره لناوخفائه علينا. ويعني هذا، ايضا، انها كلمة ترفعنا اذا فهمنا اسرارها أو أسرارا لها وتعاطفنا معها، الى قمة ديننا، وبالتالي الى قمة وجودنا. فهي ليست مجرد عبارة، ولكنها خلاصة دين هو الحق، وشعار الحكمة اللدنية التي تقف امامها كل حكمة انسانيةمطاطئة صاغرة.

لقد انتبه الامام ابوحامد الغزالي الى ماتنطوي عليه هذه الكلمة من حقائق العقيدة السامية فالف فيها كتابه « قواعد العقائد»، وانتبه اليه الامام محمد بن يوسف السنوسي الجزائري فقام في نهاية شرحه لأم البراهيم يبين شرف سرها ومانطوى تحتها من المحاسن حتى يتشعشع القلب عند ذكرها بانوار اليقين، ويتموج فيه اضواء الايمان»... ومع هذا فإننا نلاحظ ان هذه الكلمة قد كشفت للاستاذ الحبابي من معانيها العميقة اكثر مما كشفته للامام ابي حامد، وللامام السنوسي رضي الله عنهما اذ جعلته يرى فيها بداية الحكمة ونهايتها، ويرى فيها الجامعة لاعز ماجادت به قريحة الانسان في بحثه عن حقيقته في سلم الوجود وحقوله...

ان كلمة الشهادة، في نظر الاستاذ الحبابي، تثبت الانسان الذي ينطق بها عن وعي في اعلى درجة له من

الوعي والكمال، وتأكيد الذات، وتثبت الله جل وعلا في وحدانيته، وسموه، وعليائه، وهيمنته على كل ماسواه، وتثبت رسالة خاتم الانبياء والمرسلين كطريق ومنهج اليه لانها منه في قوته وغناه، الى الانسان في ضعفه وفقره... ولهذا فهي نواة الشخصانية الاسلامية، و قوامها، وبعدها الذي يجعل منها فلسفة شاملة كاملة تضع كل مشكلة في اطارها الصحيح، وتعطيها الحل الذي يرضى الانسان عنه، ويسعد به، كما يجعل منها فلسفة لاتهمل وجها للواقع، ولاتبعد عن حقلها انسانية مهما كان جنسها، ولاترضى للانسان في منظورها الا ان يكون موجودا يتمتع بابعاد كماله كلها... فهي تثبت المحايثة والمفارقة، وتدل على الطريق الذي يؤدي من الاولى الى الثانية، وتصل بينهما من غير ان تخلط هذه بتلك... ولهذا، فانه يمكننا القول بأنها نور نهتدي به، ونستطيع ان نكون، ونحن نغرف من معينها، في مستوى كل فكر مهما كانت جدته، وفي مستوى كل انسانية مهما كان تقدمها، و في مستوى كل عصرمهما كانت عجائب فتوحاته في مجالات العلم والعمل ... فهي لامتناهية المعاني... ومن الممكن ان ننظر على ضوئها، ومن خلالها، إلى كل فكر تجود به قريحة الحكماء، وان نقومه، وان نقبله او نرفضه ... ومن الممكن، ايضا، ان ندرس كل فكر نريده فلا يسعنا اذا كنا ندرك ماتشير اليه من الحقائق العالية التي لاترضى النفس الحائرة بدونها، إلاّ أن نعود منه إليها، او ننتقل منها اليه...

12: هذا و يظهر لنا ان استاذنا لايتحرك، وهو يشرح مافي كلمة الشهادة من المعاني العالية، في ماض منغلق يحلو للجامدين ان يتمسكوا به وهم لايفهمون شيئا منه، ولايتحرك في حاضر منفتح على كل بريق خداع يحلو لمن لاجذور لهم ان يتعلقوا به ليكونوا عصريين، حتى ولو كان الضلال عينه، ولايتحرك في مستقبل لما تتبين معالمه، يحلو للعجزة ان يجروا وراءه لينسوا مآسي حاضرهم، وجهلهم بماضيهم و دروسه وأنواره. ان استاذنا محمد عزيز الحبابي لايتحرك في هذه الازمنة كلها لانها ليست لامثاله من العمالقة، ولكنه يتحرك في زمان الفلسفة بالحقيقة، ذلك الذي هو زمان الحقائق التي لايضل اصحابها.. ولهذا فهو جدير بان يكون لنا قدوة الى النهضة التي لازلنا لم نسلك طريقنا اليها على الرغم من ادعائنا لها منذ زمان طويل... وبالفعل فهو لايدعونا الى هذه النهضة بالنقل عن غيرنا، ولا بالرجوع الى الماضي الذي مضى، او الى الحاضر الذي هو بعيد عنا لاننا لانحيط به، او الى المستقبل الذي نصبو اليه ونحلم به، ولكن بالبحث عن الحقيقة في سموها بالدرس، والفهم، والجهاد من اجلها. وهي حقيقة يدعونا الى ان نجعلها غايتنا في مجالات الكمال كلها، وهو إذ يدعونا اليها بهذه الكيفية في اعماله الكثيرة الجليلة يفتح امامنا طرقا للبحث والتقدم والنهوض، لايخيب لنا امل اذا سرنا عليها. وماهو في النهاية، الا رائد مقدام للفكر الطلائعي الذي يحاول افداذ من المفكرين في العالم ان يقيموا دعائمه في عصرنا لتجد الانسانية به طريقها الى الخير الذي تصبو اليه ولكنها كثيرا ماتخطئه.. ولهذا فاننا ونحن نتقدم اليه بهذا التكريم في السنة السبعين من عمره ندعو الله جل وعلا له بالصحة وطول العمر لنزداد استفادة من حكمته، ونستعين بها على معرفة الطريق الذي يجب علينا ان نسلكه في هذا العصر الذي نعيش فيه، ولكننا لسنا منه.

ان استl 1اذنا من احسن الخلف لعظماء فكرنا في الماضي، وهو مثلهم من الائمة الذين هم اهل لان يوجهوا مسار الفكر في ربوعهم وغيرها، ولان يقتدي بهم. فهو من سلسلتهم الذهبية ومن سلسلة فلاسفة اوروبا الذهبية.

ولهذا وذاك فهو فيلسوف للشرق والغرب في آن واحد وفيلسوف تفرض دراسة آثاره نفسها على الناس كلهم، ولاسيما علينا، نحن العرب، لانه ليس لنا الكثير من امثاله، ولاننا نستطيع ان نتعلم منه الكثير، وان نتقدم كثيرا بما نتعلمه عنه، ومنه.